

العلاقات السياسية بين المغرب الأقصى

وامبراطورية سنغى

بغربي افريقيا

في

القرن العاشر / السادس عشر الميلادي

بمقام

الدكتور محمد عبد الله النقيري

الأستاذ المساعد بالكلية

تمهيد:

تقتضى خطة البحث أن يعرض لتاريخ المغرب الأقصى وإمبراطورية سنغى فى فترة الدراسة أو قبلها بقليل، ثم يتناول العلاقات السياسية بين الدولتين فى ذلك القرن، وما نتج عنها من آثار على صعيد المغرب وسنغى على السواء مع رسم خريطة توضح موقع كل منهما وحدودهما التقريبية طبقا لما ذكرته المصادر التاريخية والجغرافية.

حال المغرب الأقصى قبيل القرن العاشر الهجرى وفى أثنائه:

شهد القرنان التاسع والعاشر الهجران، على ساحة المغرب الأقصى، تطورات سياسية بعيدة المدى، كان لها أثرها المباشر على وضع الإسلام والمسلمين ومستقبلهم، لا فى المغرب الأقصى وحده، بل فى الأندلس والسودان الغربى (غربى إفريقية) أيضا، ذلك أن دولة بنى مرين - التى حكمت المغرب من سنة ٥٥٣ هـ أو ٨٧٦^(١) هـ - والتى كانت تتعاون مع مسلمى الأندلس والسودان الغربى فى شتى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية^(٢) - هرمت، وأذن نجمها بالآفول، وقامت على أنقاضها دولة بنى وطاس التى ولدت ضعيفة - منذ سنة ٨٧٦ - ٩٥٧ هـ - فلم تمديد المساعدة لمسلمى الأندلس، الذين أكتسحهم الصليبيون قتلاً وتشريداً ونهباً^(٣)، بل لم تستطع حماية المغرب الأقصى منهم، إذ نشب البرتغاليون مخابهم فى سواحله وثورته، فاحتلوا مدينة سبتة سنة ٨١٨ هـ، ثم قصر المجاز سنة ٨٦٢ هـ، ثم مدينة طنجة سنة ٨٦٩ هـ، ثم أصيلا وأنفى وبعض سواحل السوس سنة ٨٧٦ هـ، ثم أرض الجديدة فيما بين أزموور وتيط سنة ٩٠٧ هـ، ثم مدينة العرائش وحسن أغادير وما أتصل به من سواحل السوس الأقصى سنة ٩١٠ هـ، ثم رباط أسفى سنة ٩١٢ هـ ثم ثغراًزموور سنة ٩١٤ هـ، ثم المعمورة سنة ٩٢٠ هـ^(٤).

(١) عبد الرحمن ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٧ ص ١٧٦ (ط بولاق سنة ١٢٨٤ هـ)

(٢) الناصرى الاستقصا لأخبار دول الغرب ارقصى : ج ٤ ص ١٢٤ (ط البيضاء سنة ١٩٥٥ م)

(٣) العبر: ج ٧ ص ٢١٦، ٢٤٨، ٢٦٨ وما بعدها

(٤) الناصرى: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: ج ٤ صفحات عدة

(٥) الناصرى : نفس المكان: ص ٩٤، ٩٨، ١١٠

وهكذا لم يبق من ثغور المغرب الأقصى وسواحله بيد المغاربة إلا القليل ، مثل سلا ورباط الفتح «وفوجي» المسلمون من البرتغال بالأمر العظيم، واستحوذ عدو الله على بلاد الهبط (الريف)، وضايقهم بها حتى انحازوا إلى الأمصار المنزوية عن الأطراف والقرى النائية عن السواحل»^(٦).

دولة الأشراف السعديين:

لم يستطع بنو وطاس أن يطردوا البرتغاليين من المناطق التي احتلوها ، لانشغالهم بالصراع على العرش ، بينما ضاق المغاربة بالبرتغاليين ذرعاً، فأخذت قبيلة المصامدة في إقليم السوس يبحثون عن شخص يقودهم في جهاد البرتغاليين ، فأرشدوا إلى الشريف أبي عبدالله محمد القائم بأمر الله ، الذي كان يلي نقابة الاشراف بفاس، وكان مقياً بِدِرْعَة، فبعثوا اليه، ولما قدم عليهم أجمعت كلمتهم عليه وبايعوه سنة ٩١٥ هـ، فتزعم قبائل السوس ، وظل يجاهد بهم البرتغاليين إلى أن مات سنة ٩٢٣ هـ، فبايع الناس أكبر أبنائه (أبا العباس أحمد الأعرج) الذي قاده في جهاد البرتغاليين وانتصر عليهم في عدة معارك فكاثبه أمراء قبيلة هنتاتة - أصحاب مُرَّاكُش - ودخلوا في طاعته، فانتقل اليهم، وجعل مُرَّاكُش عاصمة لدولته سنة ٩٣٠ هـ^(٧).

لكن (أبا العباس محمداً (الثاني) الوطاسي) سلطان المغرب (من سنة ٨٩٠ - ٩٣٦ هـ) اشتبك مع (أبي العباس أحمد الأعرج السعدي) في معارك كان النصر فيها للسعدي، ثم تدخل المغاربة بالصلح بينهما على أن يُقسَمَ المغربُ بينهما فيكون للأشراف السعديين من (تَادَلَة) إلى السوس وعاصمتهم (مُرَّاكُش)، ولبنى وطاس من (تَادَلَة) إلى المغرب الأوسط وعاصمتهم (فاس)^(٨).

كان (أبو عبدالله محمد الشيخ المهدي) يلي أمر إقليم السوس لأخيه (أبي العباس أحمد

(٦) الناصري: الاستقصا: ج ٤ ص ١١٠ : وانظر: ج ٥ ص ٦، ٨، ١٢، ١٣، ١٥.

(٧) الناصري: الاستقصا: ج ٤ ص ١١٥، ١٤٧، ج ٥ ص ٦، اللواء الركن محمود شيت خطاب: قادة المغرب العربي: ج ٢ ص ٢٠٣ (ط ٢ دار الفكر- بيروت ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م).

(٨) الناصري: المرجع السابق: ج ٤ ص ١٤٧، ١٥١، قادة فتح المغرب العربي ج ٢ ص ٢٠٤.

الأعرج)، فثار بأهل السوس على أخيه وقبض عليه، واستولى على العرش سنة ٩٤٦ هـ^(٩).

ظل (أبو عبدالله محمد الشيخ المهدي) يحارب البرتغاليين حتى أجلاهم عن ساحل السوس، ثم اتجه إلى مراكش فاستولى عليها سنة ٩٥١ هـ ثم طمحت نفسه إلى الاستحواذ على المغرب الأقصى كله، والاستيلاء على ملك بنى وطاس، فحاصر عاصمتهم (فاس) مدة طويلة ، حتى استولى عليها سنة ٩٥٦ هـ ، وقبض على الوطاسيين، وساقهم أسرى إلى (مراكش) ما عدا أبا حسون الوطاسي، فإنه هرب إلى (تلمسان)، واستجار بالأتراك - الذين خلفوا بنى زيان عليها منذ سنة ٩٥٢ هـ - فقاد جيشا قصد به (تلمسان) لطرد الأتراك منها، وحاصرها تسعة أشهر ثم دخلها سنة ٩٥٧ هـ، لكن الأتراك لم يلبثوا أن أخرجوه منها، فعاد بجيشه إلى (فاس)^(١٠).

استعان (أبو حسون الوطاسي) بالأتراك في استعادة عرشه فذهب مع جيش منهم، وحاصر مدينة (فاس)، واستولى عليها سنة ٩٦١ هـ، فقاد السلطان أبو عبدالله الشيخ قبائل السوس، وزحف بهم إلى (فاس) حيث جرت بينه وبين أبو حسون الوطاسي حروب شديدة أنتهت بقتل أبي حسون وهزيمة الأتراك واستيلاء السلطان أبي عبدالله الشيخ على (فاس) سنة ٩٦٢ هـ^(١١).

لكن الأتراك أرسلوا اليه مَنْ قتل غيلة سنة ٩٦٤ هـ ، فتولى العرش بعده ابنه عبد الله الغالب، فحارب الأتراك وأنتصر عليهم ، وحارب البرتغاليين، واشتهر بالعدل واللين «حتى صلحت الرعية وازدانت الدنيا، وانتعش الناس»^(١٢).

توفي عبدالله الغالب سنة ٩٨١ هـ، فتولى بعده ابنه محمد المتوكل، لكن عميه

(٩) الناصري: المرجع السابق ج ٥ ص ١٨، وروى الناصري عن صاحب كتاب «نشر المناني» أن ذلك ك سنة ٩٥١ هـ: لكنه رجح التاريخ الذي حدده: بينما ذكر الدكتور أحمد شليبي أن ذلك كان سنة ٩٥٥ هـ: كتابه التاريخ الإسلامي ج ٤ ص ١٥٠ (ط النهضة بمصر) ١٩٦٣ وذكر اللواء محمود خطاب أن ذلك كان سنة ٩٦٠ م)

(١٠) الاستقصا: ج ٥ ص ٢٤ - ٢٥.

(١١) المرجع السابق ج ٥ ص ٢٨.

(١٢) الاستقصا ج ٥ ص ٥٣

(الغازى أبا مروان عبدالمملك المعتصم بالله وأبا العباس أحمد المنصور الذهبى) - اللذين هربا إلى الجزائر فى حياة أبيه خوفا منه - ذهبا إلى السلطان العثمانى سليم بن سليمان، وطلبا منه مساعدتهما فى استعادة عرش المغرب من ابن أخيها، وانتصر على جيش محمد المتوكل، وذلك لتخاذل قواده وكبار رجال دولته عن نصرته: إذ كان الغازى يكاتبهم ويمنيهم بالمناصب، إذا صار الأمر له وذلك إبان إقامته بالجزائر، فانقادوا إليه، ودخل مدينة (فاس)، وباع أهل المغرب عبدالمملك بن محمد الشيخ سنة ٩٨٣ هـ، فأدخل إصلاحات عدة على الجهاز الحكومى، وأولى الجيش المغربى عناية خاصة.^(١٣)

وقد دعت شهرة الملك السلطان المخلوع محمداً بن عبدالله المتوكل إلى أن يستجد بملك البرتغال (سيستيان) ليعيد له ملكه، فشرط عليه أن يقتسم معه المغرب الأقصى، فيأخذ الملك البرتغالى المناطق الساحلية، ويترك لمحمد المتوكل ماعدا ذلك، فوافقه على رأيه، فخرج معه على رأس جيش كبير من مائة وعشرين ألف جندى، وأخذ يستولى على السواحل المغربية حتى وصل (وادي المخازن) حيث التقى بجيش السلطان المغربى أبى مروان عبدالمملك فى معركة ضارية انتهت بهزيمة الجيش البرتغالى وموت ملك البرتغال والسلطان المغربى المخلوع كليهما غريقين، بينما توفى سلطان المغرب عبدالمملك بن الشيخ والمعركة دائرة الرحى سنة ٩٨٦ هـ / ١٥٧٨ م، فتولى الأمر بعده أخوه أبوالعباس أحمد المنصور الذهبى.^(١٤)

كان أبوالعباس المنصور طموحا لتكوين امبراطورية ضخمة كمتلك التى صارت للسلطان العثمانى، فأهتم بالجيش المغربى أهتما زائدا، وأسلحة بأحدث أسلحة عصره، ووجه فرقة من جيشه استولت على بلاد (تيكورارين وتوات) وغيرها من بلاد الصحراء الكبرى، وضمها إلى سلطانه، وذلك سنة ٩٩٠ هـ، وأرسل جيشا استولى على امبراطورية سنغى والسودان الغربى سنة ٩٩٩ هـ^(١٥) على الرغم من أن البرتغاليين كانوا لا يزالون يحتلون سواحل المغرب الأقصى وحصونه.^(١٦)

(١٣) المصدر السابق: ج ٥ ص ٥٨ - ٥٩، ٦١، ٦٥، فتح قادة المغرب ج ٢ ص ٢٠٤ - ٢٠٥

(١٤) الاستقصا: ج ٥ ص ٦٩، ٧٨، ٨٠ - ٨٢

(١٥) القاضى محمود كعت: تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيش وأكابر الناس ص ١٤٦ (نشره هوداس

ودلافوس مطبعة ابردين بمدينة انجى سنة ١٩١٣ م)

(١٦) الناصرى: الاستقصا ج ٥ ص ١١٢

كان السلطان أحمد الذهبي شجاعاً طموحاً، ضرب على أيدي المغاربة بيد من حديد، وتعسف معهم في فرض الضرائب، لذلك حدثت عدة ثورات في عهده: من ذلك ثورة الحاج قرقوش ببلاد غمارة والريف سنة ٩٩٣ هـ، والتي انتهت بالقضاء على صاحبها،^(١٧) وثورة الناصر ابن السلطان الغالب ببلاد الريف، والذي كان قد أحتسب بملك قشتالة الأسباني، فزوده ليثور بالمغرب، فلما رجع إلى المغرب، التف حوله بعض القبائل كالبرانس، فزحف بهم إلى (تازا)، واستولى عليها، وهزم جيش المنصور، واستفحل أمره، فأمر المنصور وليّ عهده المأمون أن يقود جيشاً ضخمًا إليه، فلما التقى الجيشان كانت الدائرة على الناصر وجيشه، حيث قُتِلَ وفُصِّلَت رأسه وُبُعِثَ بها إلى مراكش، وذلك سنة ١٠٠٤ هـ^(١٨).

ولم تكن هاتان الثورتان هم اللتان قامتا ضده فقط، بل ثار عليه ابنه ووليّ عهده المأمون، الذي كان يلي أمر فاس لأبيه، والذي هدد أباه بالاستعانة بالأتراك ضده: لكن أباه أرسل إليه مَنْ أخذه على غِرْوَةٍ، وقبض عليه وحبسه وذلك سنة ١٠١١ هـ^(١٩).

وَأَلَمَ بالمغرب، في عهده، وباءٌ عظيم؟ فتك بساكن السهل والجبل على السواء، بل فتك بالمنصور نفسه سنة ١٠١٢ هـ^(٢٠).

وبعد وفاة المنصور وَلِيَ العرشَ وليّ عهده ابنه أبوالمعالى زيدان، لكن أهل مراكش انصرفوا عن طاعته، وبايعوا أبا فارس، مما جعل زيدان يحاربه، لكنه هُزِمَ أمامه بأم الربيع، ففر إلى تلمسان، مستجيراً بالأتراك، بينما نهض عبدالله بن الشيخ لحرب عمه أبي فارس، واستولى على مراكش^(٢١).

وهكذا مر المغرب الأقصى باضطرابات وقلاقل أتت على ملك الأشراف السعديين، وقضت عليه، ودهورت اقتصاده.

(١٧) الناصري : نفس المصدر ج ٥ ص ١١٧

(١٨) الاستقصا : ج ٥ ص ١٤٥ - ١٤٦.

(١٩) المرجع السابق : ج ٥ ص ١٦٩ ، ١٧٥ - ١٧٦.

(٢٠) المرجع السابق : ج ٥ ص ١٨٦ - ١٨٧.

(٢١) المرجع السابق : ج ٦ ص ٣ - ٧.

التعريف بدولة سنغى الاسلامية

عُرِفَت دولة سنغى باسم أكوكو) فى كتب الجغرافيين والمؤرخين والرحالة العرب القدامى، حيث أطلقوا إسم (كُوكُو) على الإقليم، وعلى عاصمته، وعلى الشعب السنغى أيضا؛ فقد ذكر المسعودى^(٢٢) طائفة الكوكو، وعدّها من أجناس السودان.

وذكر أبو عبيد^(٢٣) البكرى: أن بلاد كوكو تقع على نهر النيجر بعد انحناءه جنوبا بثلاث مراحل على الجانب الغربى من النهر، وأن عاصمتها تسمى أيضا (كوكو): «وهى مدينتان مدينة الملك ومدينة المسلمين... وملكهم مسلم لا يملكون غير المسلمين».

وقال عنها ياقوت^(٢٤) الحموى: «كُوكُو ، وهو أسم أمة وبلاد من السودان... .. وملكهم يظهر رعيته بالإسلام وأكثرهم يظهر به».

لكن المؤرخين من بنيتها وهما القاضى محمود^(٢٥) كعت، وعبدالرحمن^(٢٦) السعدى، سَمَّيَاهَا: (سُنْغَى، وَسُغَى)، وأطلق عليها المؤرخون^(٢٧) والكتاب المحدثون سنغى أو سنغى.

نشأت دولة سنغى فى حوض نهر النيجر الأوسط فى غربى إفريقيا ، ثم ضمَّ إليها أباطرتها العظام - فيما بعد - مساحات شاسعة حتى شملت معظم (السودان الغربى)، كما تظهر الخريطة المرفقة.

(٢٢) مروج الذهب ومعادن الجواهر: ج ١ ص ٤٢٢، ٤٤٠. (ط بيروت سنة ١٩٦٤م)

(٢٣) المغرب فى ذكر بلاد إفريقيا والمغرب: ص ١٨١، ١٨٣.

(٢٤) معجم البلدان: ج ٧ ص ٣٠١ - ٣٠٢.

(٢٥) فى كتابه: تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس: ص ٤٤، سهاها (سُنْغَى)

(٢٦) فى كتابه: تاريخ السودان: ص ٣، وقد سهاها (سُغَى) (نشره هوداس بمدينة أنجى سنة ١٨٩٨م)

(٢٧) كالدكتور حسن محمود فى كتاب: الاسلام والثقافة العربية فى افريقية ، ود. حسن ابراهيم: للاسلام جنوبى الصحراء الكبرى.

تاريخ دولة سنغى الإسلامية قبل القرن العاشر الهجرى:

اعتلى عرش هذه الدولة ملوك من ثلاث أسر رئيسية حكموها على التعاقب.
الأسرة الأولى، أسسها رجل قدم من اليمن، وسكن بلدة (كوكيا) على نهر النيجر الأوسط فى تاريخ غير معروف، وقُلِّدَ على سكانها ، ويبدو أن اسمه كان مبدوءاً بكلمة «ذا» مثل (ذى نواس)، فَنُسِيَ اسمه، فأطلقوا عليه «زا اليمن» نسبة إلى بلده، ثم حُرِّفَتْ إلى (زا الأيمن)، وبقيت كلمة (زا) لقباً للملوكها، وأصبحت تعنى عندهم (ملك) (٢٨).

وأول من أسلم من ملوك هذه الأسرة هو (زأكُشَى) سنة ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م (٢٩)، ويغلب عن الظن أن (زأكُشَى) هذا هو (ضياء بن قيس) البربرى من قبيلة لمطة، الذى استولى على مدينة (جاو) سنة ٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م، وجعلها عاصمة لمملكة سنغى بعد أن تغلب على سكانها الأصليين من قبائل (السوركو) (٣٠).

وهكذا ابتدأ الإسلام بالطبقة الحاكمة، ثم أخذ الشعب يتحول إلى الإسلام بالتدريج، حتى إذا كتب أبو عبيد البكرى عنها سنة ٤٦٠ هـ قال: (٣١) «وهى مدينتان، مدينة الملك، ومدينة المسلمين... ... وملكهم مسلم لا يملكون غير المسلمين».

ويؤكد ذلك أيضاً ما عثر عليه رجالُ الآثار، فى مدينة (جاو) العاصمة من شواهد رخامية لقبور ملوك سنغى، كُتِبَ على أحدها باللغة العربية الفصحى «هنا قبر الملك الذى أيد دين الله وأعزه، أبو عبد الله محمد، رحمه الله، وتاريخ وفاته سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م» (٣٢).

على أن المصادر التاريخية لا تمدنا بتاريخ مفصل لهذه الدولة الإسلامية، سوى ما

(٢٨) تاريخ السودان ص ٥.

(٢٩) المصدر السابق : ص ٣.

(٣٠) بازل دافدسن: أفريقيا تحت أضواء جديدة (ترجمة دكتور جمال أحمد ط ١٩٦١ مصر) ص ١٥٦ - ١٥٨.

(٣١) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب : ص ١٨٣.

(٣٢) أفريقيا تحت أضواء جديدة ص ١٥٦.

ذكره عنها ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) حين قال ^(٣٣): «كوكو، وهو أسم أمة وبلاد من السودان... .. وملكهم يظهر عريته بالإسلام وأكثرهم يظهر به، وله مدينة على النيل (نهر النيجر) من شرقيه أسمها (سرناه) بها أسواق ومتاجر، والسفر اليها من كل بلد متصل، وله مدينة على غربى النيل سكنها هو ورجاله وثقاته، وبها مسجد يصلى فيه، ومصلى الجماعة بين المدينتين... وجميعهم مسلمون».

لكن دولة (كوكو أو سنغى) هذه انتابها الضعف، فاستولى عليها (سيكرة) ^(٣٤) سلطان دولة مالى الإسلامية المجاورة لها من جهة الغرب، والذي اعتلى عرش مالى سنة ٦٨٤ هـ/١٢٨٥م، أو (سقمنجه) ^(٣٥) قائد (كنكن موسى بم أبى بكر) سلطان مالى من سنة ٧١٢/١٣١٢ - ٧٣٨ هـ/١٢٣٧م.

وقد أخذ سلطان مالى السلف الذكر (سليمان نار وعلى كولن ابنى زاياسبى سلطان سنغى) رهينتين حتى يضمن عدم خروج سنغى عليه وخلصها طاعته ^(٣٦).

وقد زار الرحالة العربى محمد بن بطوطة السودان الغربى سنة ٧٥٢ هـ/١٢٥٣م، ومكث بها أكثر من عام، وذكر أن ممتلكات امبراطورية مالى الاسلامية كانت تشمل (كوكو)، وتتجاوزها على نهر النيجر جنوبا إلى بلدة (مولى) من بلاد الليمين ^(٣٧).

الأسرة الثانية، وظلت مملكة سنغى خاضعة لامبراطورية مالى حتى تمكّن (على كولن وسليمان نار) من الفرار من عاصمة مالى إلى عاصمة سنغى واستقلا بها عن مالى فى عهد (منسا مارى جاطه) ^(٣٨) الثانى (٧٦٢/١٣٦٠ - ٧٧٥ هـ/١٣٧٤م) ^(٣٩). ومع أن (على

(٣٣) معجم البلدان ج ٧ ص ٣٠١ - ٣٠٢

(٣٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخير ج ٦ ص ٢٠٠، ٤٣٤، وصبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٤ (ط دار الكتب سنة ١٩٣٩م)

(٣٥) العبر : ج ٦ ص ٢٠٠، وتاريخ السودان ص ٧.

(٣٦) تاريخ السودان ص ٥.

(٣٧) تحفة النظار أو رحلة ابن بطوطة ص ٦٨٠ (ط بيروت ١٩٦٤)

(٣٨) منسا، معناها السلطان بلغة أهل مالى، صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٩٣

(٣٩) تاريخ السودان ص ٦.

كولن وسليمان نار) هما ابنا (زاياسبي) من أسرة الأزواء السابقة: فقد تلقيا بـ (سن أو سنى) أى المحرر: لأنهما حررا سنغى من سيطرة مالى عليها، وصار هذا لقبا لمن أتى بعده من ملوك سنغى^(٤٠).

ولم يتجاوز ملك الروم (سن على كولن) ثم أخيه (سليمان نار) سنغى وما حولها^(٤١). لكن مَنْ أتى بعدهم فى حكم سنغى بدأوا يوسعون مملكتهم الصغيرة على حساب ممتلكات امبراطورية مالى التى تداعى صرحها حينذاك، وأذن نجمها بالأفول: فالملك العاشر من أسرة سَنَ (سن محمد داع) - الذى تولى عرشها حوالى سنة ٨٢٥ هـ / ١٤٢٠م - نهض بمملكة سنغى، وقوى جيشها، واستولى على كثير من الأقاليم التى كانت تابعة لامبراطورية مالى، وضمها إلى مملكته، بل هاجم عاصمة مالى نفسها، وخرجها، وأسر كثيرا من أهلها^(٤٢).

و(سن سليمان) السابع عشر من ملوك هذه الأسرة - استولى على بلاد ميمة الواسعة التى كانت تابعة لمالى، وضمها إلى مملكته، كما أستولى على سلطنة (تنبكت) الإسلامية أيضا^(٤٣)، وعظمت مملكة سنغى على عهده، ونما أقتصادها، وتوطدت دعائم الحكم فيها، لكنه مات سنة ٨٦٩ هـ / ١٤٦٥م، فخلفه على حكمها (سن على) - وهو الثامن عشر - فحوّل مملكة سنغى إلى إمبراطورية شاسعة^(٤٤).

فقد أخضع معظم سكان السودان الغربى لسلطانه، إذ فتح كثيرا من الممالك الوثنية، وضمها إلى مملكته، فضلا عن استيلائه على الممالك الإسلامية المجاورة كمالى وتنبكت وجنى والحوصة والطوارق^(٤٥).

(٤٠) تاريخ الفتاش ص ٤٣.

(٤١) تاريخ السودان ص ٣.

(٤٢) تاريخ الفتاش ص ٤٢.

(٤٣) تاريخ الفتاش ص ٤٢ - ٤٣، ٤٥.

(٤٤) تاريخ السودان ص ٦٤.

(٤٥) تاريخ الفتاش ص ٤٣. والحسن الوزان : وصف افريقيا (ترجمة عبدالإمن حميد . ط جامعة الإمام محمد بن سعود) ص ٥٣٨ - ٥٣٩.

وعلى الرغم من اتساع مساحة إمبراطورية سنغى فى عهدى ، وكثرة الأراضى والأقاليم التى استولى عليها، فقد بقيت إمبراطوريته مفككة الأوصال، ولم ينجح فى ادارتها وجمع شتات سكانها، لانشغاله طوال فترة حكمه بحروب متصلة، شغلت عليه حياته، مما لم يتح له فرصة الارتقاء بنظام الحكم والإدارة، وتنمية اقتصاد دولته ، فضلاً عم اسرافه فى سفك دماء رعاياه، بخاصة العلماء وكبار القادة، مما جعل قلوب الناس تنصرف عنه^(٤٦).

ومات (سن على) بعد رجوعه من غزو (الفولانيين) سنة ٨٩٩ هـ / ١٤٩٣م، فولى العرش بعده ألته (أوبكر داعو) لكنه لم يستمر فى الحكم أكثر من أربعة أشهر، إذ قتله أحد قواد أبيه^(٤٧).

إمبراطورية سنغى فى القرن العاشر الهجرى :

الأسرة الثالثة، أسرة (الأساكى)^(٤٨): ولى (أسكيا محمد بن أبى بكر) عرش سنغى فى التاريخ السالف ، ونظرا لانه اغتصب العرش، ولم يكن من ابناء سلاطين سنغى، فأراد أن يضىفى على حكمه صفة الشرعية، فسافر إلى المشرق سنة ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧م، لىؤدى فريضة الحج، وليأخذ تفويضاً بالحكم من الخليفة العباسى بالقاهرة، بعد أن ورثت القاهرة بغداد فى مركزها الدينى والسياسى والثقافى، وأضحت حامية الخلافة الإسلامية منذ تمَّ إحياء الخلافة العباسية فيها سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١م، واصطحب معه كثيراً من علماء دولته وكبار رجال حكومته^(٤٩).

وقد أفاد (أسكيا محمد) مما شاهده فى مصر وغيرها من تَقَدُّمٍ فى مجال الحكم والإدارة ، فنظَّم الجهاز الإدارى الحاكم لإمبراطوريته الشاسعة ، وأنشأ - لأول مرة - ما يمكن أن

(٤٦) (٤٧) المصدر السابق ص ٥٢ - ٥٥ و تاريخ السودان ص ٦٤ - ٦٧

(٤٨) الأساكى جمع أسكيا: ومعناها: لا يكون أباه، ذلك أن محمد بن أبى بكر لما قتل أباه بكر داعو صاحبت أخواته

وقلن أسكيا؟ أى لا يكون محمد سلطاناً، فالتخذه لقباً لنفسه، تاريخ السودان ص ٧٢

(٤٩) تاريخ السودان ص ٧٢ - ٧٣.



نسميه تجاوزاً الهيئات التشريعية والتنفيذية والقضائية لتحقيق الأمن والعدل بين رعاياه ، وأنشأ جيشاً نظامياً مدرباً على أحدث أسلحة زمانه ومكانه، أعاد به إخضاع الممالك والأقاليم التي تمردت على سنغى قبيل حكمه^(٥٠)، وأصبحت إمبراطوريته مترامية الأطراف ، تمتد من المحيط الأطلسي في الغرب، إلى وسط بلاد الحوصة في الشرق، ومن إقليم فولتا العليا (بلاد قبائل الموسى الوثنية) في الجنوب، إلى مناطق قبائل الطوارق في الشمال ، وسيطرت بهذا على السودان الغربى كله تقريباً بما فيه من ثروات طبيعية عظيمة القيمة حينذاك، وهى ذهب وانقاره وملح تغازى ونحاس تكدا، وتجارة السودان الراجحة.^(٥١)

وصلت إمبراطورية سنغى ، فى عصره ، قمة اتساعها وقوتها وراثتها وتقدمها ، ومكث فى الحكم نيافاً وثلاثين سنة حتى كُفَّ بصره، وتجراً عليه أولاده ، فعزلوه عن الحكم، وتولى ابنه (موسى) عرش سنغى سنة ٨٣٥ هـ / ١٤٣٢م^(٥٢).

وأخذت سنغى، منذ ذلك الحين ، فى التفكك والضعف، إذ أشغل موسى بالصراع مع إخوته على العرش، مما جرأ حكام الأقاليم على الانفصال بأقاليمهم عن الدولة^(٥٣).

قتل موسى إخوته فى شعبان من سنة ٩٣٧ هـ / ١٥٣١م^(٥٤)، فولى العرش ابن عمه (أسكيا محمد بنكن ابن عمر كمزاغ)، فأعاد بناء جيش سنغى وتدريبه وتسليحه، لكنه مع ذلك هُزم أمام جيش مملكة (كُنت) التى انتصرت عليه، ولم يستطع استعادتها مرة أخرى^(٥٥).

وفى سنة ٩٤٣ هـ / ١٥٣٦م، قام على (أسكيا محمد بنكن) ابن عمه (أسكيا

(٥٠) تاريخ الفتاش ص ٥٩.

(٥١) تاريخ الفتاش ص ٦٥، وتاريخ السودان ص ٧٢.

(٥٢) تاريخ الفتاش ص ٧٨.

(٥٣) (٥٤) تاريخ السودان ص ٧٨، ٨٦.

(٥٥) تاريخ السودان ص ٨٣.

اسماعيلُ بْنُ أسكيا الحاج محمد بن أبى بكر) وعزله، وتولى هو العرش^(٥٦). وسار على سياسة الجهاد التى بدأها أسلافه من سلاطين سنغى، لكن بلاده انتابها جفاف وقحط، مما نشر المجاعات والأوبئة بين رعاياه، ومات سنة ٩٤٦ هـ / ١٥٣٩م^(٥٧)، فولى عرش سنغى (أسكيا إسحاق)، فعمل على إقرار الأمن وتوفير الرخاء لرعاياه، فأهتم بالجهاز الإدارى والقضاء والشرطة والجيش، وطاف بمملكته يضرب على أيدي العابثين وقطاع الطرق، فأرسل جيشا إلى عاصمة (مالى) - عندما رفض سلطانها (محمد الثانى) إرسال الأموال التى كانت تدفعها دولته لامبراطورية سنغى - سنة ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥م، فحاربهم، وانتصر عليهم، لكنه كان متعسفا مع رعاياه فى فرض الضرائب. ومات سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩م، بعد أن عهد بالحكم لابنه (عبدالمملك)، لكن أهل سنغى لم يوافقوا عليه لطغيانه^(٥٨) فبايعوا (داود ابن أسكيا الحاج محمد) وتولى عرش سنغى سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩م^(٥٩).

بدأ بتنظيم الجهاز الإدارى الحاكم، وبنى الكثير من المنشآت العامة والمساجد والمدارس، واهتم بنشر الثقافة الإسلامية، وعمل على توفير الأمن والرخاء لرعاياه^(٦٠)، وحاول أن يعيد ما كان لامبراطورية سنغى من سيطرة ونفوذ على مناطق استقلت عنها، فجهز عدة جيوش وجّه كلا منها لإقليم، فنجح بعضها، وفشل البعض الآخر، وظهر عجز سنغى وضعفها واضحين فى أواخر حكمه، ومات (أسكيا داود) سنة ٩٩٠ هـ / ١٥٨٢م^(٦١)، فتولى العرش ابنه (أسكيا الحاج) الذى تميز عصره بالفوضى، فأكل الناس بعضهم أموال بعض، فقام عليه إخوته فعزلوه، وولّوا أخاهم (محمد بن أسكيا داود)، سنة ٩٩٥ هـ / ١٥٨٧م، لكنه قتل أخويه (فرن^(٦٢)) محمد بنكن وفرن^(٦٣) الهادى^(٦٤).

(٥٦) (٥٧) تاريخ الفتاش ص ٨٦، ٨٧.

(٥٨) تاريخ الفتاش ص ٨٨ - ٩٠، وتاريخ السودان ص ٩٥، ٩٨.

(٥٩) تاريخ السودان ص ٦، وقد أخطأ صاحب تاريخ الفتاش حين ذكر فى ص ٩٣: أن (داود) تولى فى صفر سنة

٩٥٥ هـ، لأنه ذكر فى نفس الصفحة أن (أسكيا إسحاق) سبقه مات سنة ٩٥٦ هـ.

(٦٠) تاريخ الفتاش ص ٩٤، ١٠٦، ١٠٨.

(٦١) تاريخ السودان ص ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٦، ١١٣.

(٦٢) تاريخ الفتاش ص ١١٩، ١٢٤، ١٢٦.

(٦٣) فرن، أى حاكم: تاريخ الفتاش ص ١١٩.

ويبدو أن الاضطراب السياسي الذي أعقب ذلك نتج عنه خلل اقتصادي ، فارتفعت الأسعار، وعمَّ القحط ربوع البلاد، فاتفق إخوته على عزله، لكنه مات ، فولوا أخاهم (إسحاق بن داود) سنة ٩٩٦ هـ / ١٥٨٨ م.^(٦٣) بيتا بايع أهل (تنبكت) أخاه (بلمع * محمد الصادق) أسكيا عليهم، فذهب بهم، ليقابل جيش أسكيا (إسحاق) ، ودارت بين الجيشين معركة عنيفة، انتصر بعدها (أسكيا إسحاق) ، وأسر كثيرا من أهل (تنبكت) ، ونكّل^(٦٤) بهم.

وقد حاول (أسكيا إسحاق) أن يعيد الأمن والهدوء والرخاء إلى ربوع البلاد، فأهتم بالزراعة والتجارة وال عمران، حتى أصبحت (جاو) عاصمة دولته، تضارع أكبر عواصم العالم حينذاك في روعة البنيان وكثرة السكان. إذ بلغت قصورها ودورها سبعة آلاف وستة وستين وعشرين بيتا سوى بيوت مبنيات بالحشيش^(٦٥).

وبلغت مدينتا (تنبكت وجنى) قمة الاتساع والازدهار ، وتمتع سكانها بقدر كبير من الرفاهية ، «وكانت أرض السودان - عموما - حينئذ من أعظم أرض الله تعالى نعمة ورفاهية وأمنا وعافية في كل جهة ومكان»^(٦٦) . وانتشر فيها المساجد ومعاهد العلم ومكتباته ، وعمت الثقافة الاسلامية ربوع البلاد ، ولمع كثير من علماء السودان في شتى العلوم والمعارف.^(٦٧)

لكن السلطان (أحمد الذهبي) سلطان المغرب الاقصى أرسل جيشا احتل امبراطورية

(٦٣) تاريخ السودان ص ١٢١ - ١٢٥

(*) بلمع، يكون سلطانا على الاجاد، تاريخ الفتاش ص ١٢٦

(٦٤) تاريخ الفتاش ص ١٤٢ - ١٤٣.

(٦٥) المصدر السابق ص ١٤٣ - ١٤٦.

(٦٦) تاريخ السودان ص ١٤٢، ووصف افريقية ص ٥٣٨ - ٥٣٩

(٦٧) نفس المصدر ، وقد ترجم لكثير من العلماء السودان وكذلك أحمد بابا : في كتابه : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، حققه ناطق صالح مطلوب في كلية آداب عين شمس للماجستير.

سنغى، فاختر السودانىون (أسكيا محمد كاغ) سلطانا عليهم، فعرض الصلح على قائد الجيش المغربى، فاحتال عليه، وقتله ومن معه من خاصة رجاله^(٦٨).

العلاقات السياسية بين المغرب الأقصى وسنغى فى القرن العاشر الهجرى

كانت علاقات المغرب فى عهد بنى مرين بامبراطورية مالى صاحبة السيادة على السودان الغربى حينذاك، تقوم على التآخى فى الإسلام، والتعاون فى شتى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية، وسفرت بين سلاطينها أعلام الدولتين بالهدايا والرسائل الودية ردحا من الزمن^(٦٩).

لكن دولة الاشراف السعديين التى حكمت المغرب بعدهم غيرت هذه السياسة مع أساكى امبراطورية سنغى التى خلفت مالى على حكم السودان.

فما طبيعة هذه السياسة؟ وما دوافعها؟ وما النتائج التى ترتبت عليها على الساحتين المغربية والسودانية على السواء؟

كانت امبراطورية سنغى تسيطر على السودان الغربى، وتقع جُلُّ اراضيها المخصصة فى المنطقة المطيرة، فضلا عن جريان نهريْن عظيمين فى أراضيها هما نهرا السنغال والنيجر وفروعها الكثيرة، مما ساعد على النهوض بالزراعة والثروة الحيوانية. وضمت أراضيها ثروات معدنية هائلة: كالذهب فى منطقتى (بيط ووانقارة) «وفىها يظهر الذهب على وجه الأرض، فيستخرجه أهله، ويعملونه قوالب كاللبن^(٧٠)».

وكالمُح فى (تغازى)، والذى كانت له أهمية قصوى لدى السودان. حتى كانت بعض قبائلهم تشتري القطعة منه بوزنها ذهباً. وقد صور الرحالة ابن بطوطة أهمية الملح

(٦٨) تاريخ الفتاش: ص ١٥٨ وما بعدها

(٦٩) العبر: ج ٦ ص ٢٠١ - ٢٠٢، ج ٧ ص ٢٦٦، ٣١٠ - ٣١١

(٧٠) المسعودى: أخبار الزمان ومن أباده الحدثنان (مخطوط بدار الكتب رقم ٨٧٩ تاريخ ورقه ٣٩ أ)

لدى السودان بعامة حين قال : «وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يُقَطُّونه قطعاً ويتبايعون به . قرية تغازى - على حقارتها - يُتَعامل فيها بالثناطير المقتطرة من التبر»^(٧١).

فضلا عن النحاس والحديد والماشية والرقيق والصمغ والعسل والأبنوس والعاج وغيرها .^(٧٢)

وشُغِفَ السودانيون بمنتجات الشرق الإسلامى وأوربا كالقمح والتمر والزبيب والشب والنحاس المصنوع والأقمشة الملونة والصوف والجوارى والماليك والجمال والخيل العربية والودع والاحجار الكريمة وحلى الزجاج والطور وغيرها ، لذلك هوت إلى السودان الغربى افئدة التجار المسلمين من كل مكان ، تضربُ إليه أكباد الإبل عبر الصحراء الكبرى، أو تمخر بسفنها عباب البحار والمحيطات ، حاملة إلى السودان ما يشتهون وحاملة منهم ما يحتاج العالم اليه من ثروات بلادهم^(٧٣).

وأصبحت مدن السودان الغربى وقراه أسواقا نافقة يغشاها التجار المسلمون من كل مكان ، فمدينة (أوذغست) «سوقها عامرة الدهر كله، لا يسمع الرجل فيها كلام جليسه لكثرة جمعه وضوضاء أهله، وتبايعهم بالتبر»^(٧٤) «وحاضرة الملك لأهل مالى هو بلد بنى بلد متسع الحظّة معين على الزرع مستبحر العمارة نافق الأسواق، وهو محط لركاب البحر من المغرب وإفريقية ومصر، والبضائع مجلوبة إليها من كل قطر»^(٧٥).

وأضحت مدينتا (تنبكت وجى) سوقين مزدهرين يفد عليهما التجار المسلمون من

(٧١) رحلة ابن بطوطة ص ٦٥٨

(٧٢) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ١٧١ ، ١٧٧ ، ١٧٨

(٧٣) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٦١ ، ٩٨ ، ١٠١ ، البكرى : المغرب : صفحات عدة، ووصف افريقية ص

٥٣٨

(٧٤) البكرى : المغرب ، ص ١٥٨ .

(٧٥) العبر : ج ٦ ص ٢٠٢ .

كل مكان^(٧٦)، وكان للملك (كوكو) مدينة على الجانب الشرقى لنهر النيجر اسمها (سرناء) بها أسواق ومتاجر، والسفن إليها من كل بلد متصل^(٧٧).

كان التجار المسلمون يعبرون المغرب الأقصى في طريقهم إلى السودان الغربى وكان المغرب يفرض عليهم ضرائب باهظة، بلغت جملتها على التجار الذين أجتازوا سجلماة وحدها في أول القرن الرابع الهجرى نحو أربعمائة ألف دينار^(٧٨).

وكان التجار المغاربة يشاركون في هذا النشاط التجارى بجهد كبير حتى اشتهرت مدن مغربية كثيرة كأسواق خاصة بتصريف منتجات السودان وأثرى المغرب الأقصى من هذا وذاك ثراء منقطع النظير^(٧٩).

لكنه كان لما حلّ بالمغرب الأقصى من اضطرابات وقلاقل قبيل ظهور دولة الأشراف السعديين وفي أوائل حكمها، واحتلال البرتغاليين لمعظم سواحله وثلغوره - كان لكل ذلك أن انصرف التجار عن طرق المغرب الأقصى وأسواقه إلى طرق وأسواق أخرى، مما حرم المغرب الأقصى من أهم مورد اقتصادى كان يعتمد عليه، في الوقت الذى شلت فيه الحروب والاضطرابات السياسية المستمرة كثيرا من الموارد الاقتصادية الأخرى^(٨٠)، ففكر السلاطين الأشراف السعديون في غزو السودان الغربى، للاستيلاء على ثرواته من جهة، ولإعادة تجارته إلى المغرب من جهة أخرى^(٨١).

أرسل أبو العباس أحمد الأعرج سلطان المغرب الأقصى (من سنة ٩٢٣ - ٩٤٦ هـ) إلى (أسكيا إسحاق الأول) إمبراطور سنغى (من سنة ٩٤٦ - ٩٥٦ هـ) ليسلم له في معدن الملح في (تغازى)، فرفض طلبه، وأمر ألفين من قبائل الطوارق الخاضعين له، أن

(٧٦) تاريخ السودان : ص ١١ - ١٣، ٢١.

(٧٧) معجم البلدان : ج ٧ ص ٣٠٢.

(٧٨) صورة الأرض : ص ٩٩، ٦١، أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ص ٢٦.

(٧٩) المصدرين السابقين : نفس الصفحات . والمغرب : صفحات عدة.

(٨٠) (٨١) الاستقصا ج ٤ ص ١٠٩ - ١١٠، والقوى البحرية ص ٢٦٠.

يغيروا على آخر بلد (درعة) من جهة مراكش دون قتل أحد إظهاراً لقوة سنغى وردعا لسلطان المغرب الأقصى، فأغاروا على سوق (بنى أصبيخ) ونهبوا ما وجدوه فيه من الأموال^(٨٢).

وإذا كان الصراع بين السلطان (أبى العباس أحمد الأعرج) وبين أخيه (أبى عبدالله محمد المهدي) الذى تغلب عليه، واستولى على العرش سنة ٩٤٦ هـ - وقد صرف الأول عن تحقيق أطماعه، فإن الثانى - بعد أن قضى على ملك بنى وطاس فى مراكش، وطرد البرتغاليين من جُلّ ثغوره^(٨٣) - أرسل جيشا قاده (القلالى الزيرى) إلى تعازى ، فقتل حاكمها (محمد أكبا) وبعض الطوارق الذين كانوا يستخرجون الملح منها سنة ٩٦٤ هـ^(٨٤).

لكن (أسكبا داود) - الذى ولى عرش سنغى منذ سنة ٩٥٦ هـ - بعث جيشا من أربعة وعشرين ألفا، فأغار على جوبى المغرب الأقصى^(٨٥).

وهكذا تطورت العلاقات السياسية بين دولة الأشراف السعديين وبين امبراطورية سنغى إلى غارات خاطفة تشنها كلتا الدولتين على الأخرى.

لكن سلطان المغرب (أحمد بن محمد المهدي) الملقب بالمنصور - والذى ولى العرش سنة ٩٨٦ هـ - رأى من الحكمة إرجاء احتلال المغرب لامبراطورية سنغى ، لما تمتعت به فى عهد (أسكيا داود) من قوة، فعمد إلى أسلوب اللين والمصانعة، وأرسل رسالة رقيقة إليه، شرح له فيها ظروف المغرب السياسية والاقتصادية وحاجته إلى المعونة لمواجهة الزحف الصليبي على بلاده ، وأنه يستأذنه فى استخراج الملح من تغاذى ولو عاما واحدا ،

(٨٢) تاريخ السودان ص ٩٩.

(٨٣) الاستقصا ج ٤ ص ١١٥، ١٤٧، ج ٥ ص ٢٤، ٢٥.

(٨٤) تاريخ السودان ص ١٠٦.

(٨٥) نفس المصدر ص ١٠٩.

فأرسل إليه هدية هي عشرة آلاف مثقال من الذهب ، وجعل له خراج بعض النواحي من إمبراطورية سنغى ، وهب أخا سلطان المغرب (الشريف محمد بن القاسم) ضياعاً وأموالاً وعبيداً ، مما أوجد المودة والصفاء ، وحسّن العلاقات السياسية بين الدولتين بقية عهد (أسكيا داود) حتى أنه عندما نُعيَ لسلطان المغرب ، جلس وتقبل العزاء فيه^(٨٦).

ولى عهد سنغى (أسكيا الحاج) - بعد موت أبيه (أسكيا داود) - سنة ٩٩٠ هـ ، فأرسل إليه سلطان المغرب وفداً بهدايا ثمينة بغية الاطلاع على أحوال سنغى ، فأكرم (أسكيا الحاج) وفده ، وزوّده بأضعاف هداياه ، فعاد الوفد وأخبره بما تمر به سنغى من فوضى واضطراب^(٨٧)

أمر سلطان المغرب (أحمد بن محمد المهدي) أخاه (محمداً) أن يرحل من سنغى بما يستطيع حمله من الأموال^(٨٨) ثم أرسل جيشاً عدته عشرون ألفاً من المغاربة ليحتل إمبراطورية سنغى. فهلك معظمه من الجوع والعطش ، ورجع مَنْ بقى منه إلى مراكش دون أن يحقق من أغراضه شيئاً^(٨٩) ، فأرسل مائتين من الرماة إلى (تغازي) ليأسروا أهلها ، فهرب أهلها منها قبل وصول الرماة إليهم^(٩٠).

احتلال المغرب لامبراطورية سنغى وغيرها من ممالك السودان الغربى

أخذ سلطان المغرب السالف الذكر يعد جيشاً منظماً مزوداً بأحدث أسلحة عصره من المدافع والبنادق وبكل ما يحتاج إليه في طريق مقفر وجوحر موبوء من مهندسين وأطباء وغير ذلك ، ثم أمر عليه عشرة من القادة المغاربة والأجانب على رأسهم (جودر) باشا الأسباني الأصل ، وأمرهم بالمسير إلى سنغى لاحتلالها^(٩١).

(٨٦) تاريخ الفتاش ص ١٤٩ ، وتاريخ السودان ص ١١٠ - ١١١ .

(٨٧) تاريخ السودان ص ١٢٠

(٨٨) تاريخ الفتاش ص ١٤٩

(٨٩) (٩٠) تاريخ السودان ص ١٢٠ - ١٢١

(٩١) تاريخ الفتاش : ص ١٤٦

تداعت أخبار الجيش المغربى إلى أسماح امبراطور سنغى (أسكيا إسحاق) الثانى - الذى ولى عرشها سنة ٩٩٦ هـ - فاستشار كبار رجال دولته وقادة جيشه فيما يفعل ، فأشار عليه بعضهم بإرسال فرقة فدائية تسبق جيش المغرب إلى آبار الماء فى الصحراء الكبرى فتقدمها، فيهلك الجيش المغربى من العطش، وأشار عليه آخرون بترحيل سكان العاصمة (كاو) بأمتعتهم إلى الجانب الغربى من نهر النيجر ليكونوا بأمن من الجيش المغربى، وأشار هو عليهم أن يذهب بهم جنوبا إلى إقليم (دندى) حتى يمكن جيشه إهلاك الجيش المغربى فى الأحراش والغابات، لكن الغالبية رفضت الاقتراحات السابقة جميعها ، وأصررت على البقاء فى (سُنكى) بالقرب من (تُندييى) لمواجهة الجيش المغربى وقتاله، فنزل على رأى الأغلبية ، ووضع فى مقدمة جيشه ألف بقرة، ليدفعها بين صفوف الجيش المغربى عند لقائه حتى تثير الاضطراب فيه^(٩٢).

وصل الجيش المغربى إلى (تنديبى) قريبا من (كاو) العاصمة، فى جمادى الاولى من سنة ٩٩٩ هـ / ١٥٩١ م، وعسكر بإزاء جيش سنغى، ودارت بين الجيشين معركة رهيبة ، لكنها غير متكافئة التسليح، فبينما سلاح جيش سنغى الحراب والنشاب ، إذا بمدافع الجيش المغربى وبنادقه تحصدتهم حصدا ، وولت الأبقار وهاجت فى جيش سنغى، فزادت فى نسبة الخسائر، وهرب (أسكيا إسحاق) الثانى بمن نجى معه من الفرسان، وأمر سكان العاصمة (كاو) أن يعبروا نهر النيجر إلى الضفة الغربية فهاج السكان إلى القوارب فى ذعر شديد، مما تسبب فى غرق كثير منهم^(٩٣).

تعقب الجيش المغربى فلول الجيش السودانى المهزوم ، وقتلوا كثيرا من أفرادهم ، وسار (جودر) باشا بجيش المغرب إلى العاصمة (كاو) ، فوجدها خالية من سكانها سوى الضعفاء والمرضى.

ودخل دار (أسكيا إسحاق). فحرقها ، لأنه لم يجد فيها شيئا ، وأرسل إليه (أسكيا

(٩٢) نفس المصدر ص ١٤٩ - ١٥٢، وتاريخ السودان ص ١٤٠

(٩٣) تاريخ الفتاش : ص ١٤٩ - ١٥٢، وتاريخ السودان : ص ١٤٠ - ١٤١

إسحاق)، يعلن له الولاء والدخول في طاعة سلطان المغرب ودفع جزية بمقدارها مائة ألف مثقال من الذهب وألف خادم كل عام على أن يعود الجيش المغربي إلى بلاده، فأمله (جودر) باشا حتى يكتب لسلطان المغرب في الصلح، وبعث رسالة (أسكيا إسحق) إلى سلطان المغرب، وضمتها رسالة منه إليه، قال فيها: إن دار شيخ الحمارية في المغرب خير من دار (أسكيا إسحاق) إذ كان الصلح رغبة أمراء الجيش المغربي وجنوده، لما تعرضوا له من أمراض ومشاق في تلك البلاد الحارة الموبوءة^(٩٤).

ذهب (جودر) باشا بجيش المغرب شمالا إلى مدينة (تنبكت)، ونزل بأحسن أحيائها وهو حى (الغداسين) فسكن هو وجيشه فيه، بعد أن عاثوا في المدينة فسادا ونهباً وقتلاً، وأشاعوا الذعر في تلك الجهات^(٩٥).

بقى (جودر) باشا وجيش المغرب ينتظر رد سلطان المغرب على طلب (أسكيا إسحاق) الصلح ودفع الجزية، لكن سلطان المغرب بعث إليه قائداً آخر هو أخو جودر (محمود باشا ابن على بن زرقون) وعزل جودر، ورفض الصلح^(٩٦).

أخذ الباشا (محمود بن على بن زرقون) الجيش المغربي، وسار به جنوباً إلى (كاو) عاصمة سنغى، فأشتبك معهم جيش سنغى مرة أخرى، لكنه هُزم عند مكان يسمى (برهة)، فخلع السودان (أسكيا إسحاق)، ولوا عليهم أخاه (محمد كاغ) سلطاناً فأرسل إلى الباشا (محمود) يعلن له دخوله في طاعة سلطان مراکش، ويتعهد بدفع الجزية، فتظاهر الباشا (محمود) بالموافقة، وطلب منه القدوم إليه لكتابة شروط الصلح فقدم عليه في خاصة رجاله وقادة جيشه، فغدر بهم، وكبلهم في الحديد، ثم قتلهم جميعاً^(٩٧).

(٩٤) الجزية هي مصطلح إسلامي يعبر به عما تأخذه الدولة الإسلامية ممن أراد البقاء على دينه من غير المسلمين لكن موزعى السودان استخدموها هنا تحجوا.

(٩٤) الاستقصا ج ٥ ص ١٢٢، تاريخ السودان ص ١٤١

(٩٥) هم تجمل قدموا من غدامس، فحيهم أرقى الأحيل.

(٩٥) المرجع السابقين : نفس المكان

(٩٦) تاريخ السودان ص ١٥٧

(٩٧) الاستقصا : ج ٥ ص ١٢٢، تاريخ الفتاش ص ١٦٨.

ولئى السودان عليهم (أسكيا نوح) فهرب بمن بقى معه إلى أقليم (وئلى) جنوبا، فتعقبهم الجيش المغربى، وقتلوا منهم أعدادا كبيرة^(٩٨).

نتائج سياسة المغرب الأقصى على امبراطورية سنغى:

نتج عن سياسة المغرب الأقصى مع امبراطورية سنغى تطورات سياسية واقتصادية وثقافية ودينية بعيدة المدى لا بالنسبة لامبراطورية سنغى الاسلامية وحدها، بل بالنسبة لمسلمى افريقية جميعا.

فمن الناحية السياسية ، قضى المغرب على استقلال أكبر دولة مسلمة فى إفريقيا ، وهى امبراطورية سنغى ، التى سيطرت على السودان الغربى ، ونشرت الإسلام وحضارته فى ربوعه قبل تلك الغزاة بمئات السنين ، ووطدت علاقاتها السياسية والاقتصادية والثقافية مع الدول الإسلامية.^(٩٩)

ومن جهة أخرى قضت هذه الغزاة على جيش المغرب وجيش سنغى على السواء، إذ أباد جيش المغرب معظم جيش سنغى ، بينا أبادت الأمراض والأوبئة معظم جيش المغرب، فاضطرب جبل الأمان فى تلك الجهات ، وهجمت القبائل والممالك الوثنية على مسلمى السودان يقتلون ويأسرون وينهبون ، ويدمرون مظاهر الحضارة الإسلامية فى كل مكان^(١٠٠).

ومن الناحية الاقتصادية، لم يستطع المغرب الاستيلاء على ثروات السودان الغربى، ولا استعادة تجارته، كما توهم؛ إذا فتكت الأوبئة والأمراض بمعظم جيشه، وعاد إلى المغرب الباشا (محمود بن زرقون) ببعض الجيش حاملا كبار تجار سنغى أسرى إلى

(٩٨) الاستقصا : ج ٥ ص ١٢٢، تاريخ الفتاش ص ١٦٨.

(٩٩) الاستقصا : ج ٥ ص ١١٩ - ١٢٢، تاريخ الفتاش ص ٥٩ وما بعدها ، وتاريخ السودان ص ٧٢ وما بعدها .

(١٠٠) الاستقصا ج ٥ : ص ١٢١ - ١٢٢ ، وتاريخ الفتاش ص ١٦٤ ، وما بعدها ، وتاريخ السودان ص

١٤١.

مراكش، وبذلك كسدت تجارة السودان وتدهور أقتصاده، ولم يفد من ذلك المغرب ولا امبراطورية سنغى كلاهما^(١٠١).

ومن الناحية الثقافية ، قبض الباشا (محمود بن زرقون) على معظم علماء سنغى، وساقهم أسرى إلى مراكش، واعتدى الجنود المغاربة على معاهد العلم ومكتباته في مدن امبراطورية سنغى وقراها ينهبون ويحرقون ، فضلا عن الغارات الهمجية التى شنتها القبائل والممالك الوثنية على امبراطورية سنغى عندما أحست بضعفها ، والتى دمرت مظاهر الحضارة الإسلامية ولهذا أغلقت كثير من معاهد العلم ومكتباته والتى كانت تشع في أرجاء السودان الغربى علما ونورا، وضاعت مؤلفات كثير من علماء السودان، وتوقفت دروس العلم في معظم المساجد، وخبى نور الثقافة الإسلامية في تلك الأنحاء^(١٠٢).

ومن الناحية الدينية : أضرت الغزوة المغربية بمستقبل الإسلام والمسلمين لا في السودان الغربى فحسب بل في قارة إفريقية أيضا، ذلك أن أمبراطورية سنغى الإسلامية قامت بجهود كبيرة في نشر الإسلام فيما جاورها من بقاع إفريقية؟ فلما قضى المغرب على حكومتها وعلى جيشها، هاجمتها القبائل الوثنية، تقتل وتنهب وتخرب، وفي نفس الوقت طوقها البرتغاليون ثم الإنجليز وغيرهم من الدول المسيحية ، واحتلوها هى وسواها من دول إفريقية، وأخذوا ينشرون المسيحية ويحاربون تقدم الإسلام في كل مكان^(١٠٣).

وفوق ذلك كله ، فلم يكن لهذه الغزوة المغربية سوى آثار غاية في السوء بالنسبة للمغرب والسودان الغربى كليهما، ذلك أن البرتغاليين كانوا حينئذ لا يزالون جاثمين على بعض الثغور المغربية ، فلو وجهت الجيوش المغربية لإخراج البرتغاليين منها ومحاربة

(١٠١) الاستقصا ج ٥ : ص ١٢١ - ١٢٢ ، وتاريخ الفتاش ص ١٦٤ ، وما بعدها ، وتاريخ السودان ص ١٤١ .

(١٠٢) (١٠٣) المراجع السابقة : نفس المكان ، الإسلام والثقافة العربية في افريقية صفحات متفرقة وقد ترجم أحمد بابا في كتابه نيل الابتهاج بتطريز الديباج لكثير من علماء سنغى ، وكذلك فعل عبدالرحمن السعدى في كتابه : تاريخ السودان.

تدفعهم على البلدان الإسلامية الأخرى لكان خيرا من ذلك وأنفع بل إن البرتغاليين طمعوا في المغرب نفسه، واحتلوا أجزاء أخرى منه لما وهنت قوته على أثر تلك الغزاة .

وكان من أبرز نتائج تلك الغزوة أنها عجلت بزوال ملك الأشراف السعديين ، واضطراب أحوال المغرب السياسية وتدهور اقتصاده ، وتلك عظة من عظات التاريخ للمسلمين!

محمد عبدالله النقيرة
أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد

ملخص البحث

عنوان البحث : العلاقات السياسية بين المغرب الأقصى وبين أُمَراطورية سنغى بغربى افريقية فى القرن العاشر الهجرى

عرض البحث لتارىخ المغرب وسنغى خلال فترة الدراسة أو قبلها بقليل، وبين أن العلاقات بينهما فى عهد بنى مرين كان يسودها التأخى فى الإسلام والتعاون فى شتى المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية.

وكان المغرب حكومة وشعبا يفيد من تجارة سنغى المارة عبر أراضيه، فقد كانت فى سنغى ثروات طبيعية عظيمة القيمة كالذهب والنحاس والملح وغيرها، لكن احتلال البرتغاليين لسواحل المغرب والاضطرابات السياسية التى حلت فيه صرفت تجارة سنغى عن المغرب؛ مما أثر على اقتصاده؛ ففكر السلاطين الأشراف فى احتلال سنغى للإستيلاء على ثرواتها وإعادة تجارتها إلى أسواق المغرب وطرقه، وبعد محاولات نجح (المنصور أحمد بن محمد المهدى) سلطان المغرب فى غزو سنغى سنة ٩٩٩ هـ .

ونتى عن ذلك فقدان استقلال سنغى وتدهور الحضارة الإسلامية فيها واحتلال الصليبيين لها ولغيرها من بلدان المسلمين، وقضى المغرب على جيشه، وتدهور اقتصاده ولم يفد من ثروات سنغى شيئا، واضطربت أحواله جميعا.

محمد عبدالله النقيرة

مصادر البحث ومراجعته

- ١ - أحمد بابا: نيل الابتهاج بتطريز الديباج (حققه ناطق صالح مطلوب لنيل رسالة الماجستير من كلية الآداب - جامعة عين شمس ١٩٧٣م).
- ٢ - ابن بطوطة: تحفة النظر في عجائب الأمصار أو رحلة ابن بطوطة (ط بيروت سنة ١٩٦٤م)
- ٣ - ابن حوقل: المسالك والممالك أو صورة الارض (ط بيروت سنة ١٩٦٤م)
- ٤ - ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر (ط بولاق بمصر سنة ١٢٨٤ هـ)
- ٥ - أحمد شلبي (دكتور): التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ج ٤ (ط دار النهضة المصرية سنة ١٩٦٣م)
- ٦ - أرشيبالد (لويس): القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط
- ٧ - بازل دافدسن: أفريقيا تحت أضواء جديدة (ترجمة دكتور جمال أحمد ط بيروت سنة ١٩٦١م)
- ٨ - البكرى (أبو عبيد): المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (ط الجزائر سنة ١٨٥٧م)
- ٩ - حسن إبراهيم (دكتور): الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى (ط القاهرة ١٩٥٧م)
- ١٠ - حسن أحمد محمود (دكتور): الإسلام والثقافة العربية في إفريقية (ط القاهرة سنة ١٩٥٨م)
- ١١ - الحسن الوزان أوليو الافريقى: وصف افريقية (ترجمه عن الفرنسية د. عبدالرحمن حميده، نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود سنة ١٣٩٩ هـ)
- ١٢ - السعدى (عبدالرحمن): تاريخ السودان (نشر هوداس ودولافوس بمدينة أنجى سنة ١٨٩٨م)
- ١٣ - القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الإنسا (ط دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٩م)
- ١٤ - محمود شيت خطاب (اللواء): قادة فتح المغرب العربى (ط دار الفكر بيروت سنة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣م)

- ١٥ - محمود كعت (القاضي): تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيش وأكابر الناس -
(نشر هوادس بباريس ١٩١٣)
- ١٦ - المسعودي: أخبار الزمان ومن أباده الحدثان (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم
٨٧٩ تاريخ)
- ١٧ - المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر (ط بيروت سنة ١٩٦٤م)
- ١٨ - الناصري (أبو العباس): الاستقصا لأخبار دول المغرب الاقصى (ط الدار البيضاء
سنة ١٩٥٥م)
- ١٩ - ياقوت الحموي: معجم البلدان (ط مصر ١٣٢٤ هـ)
-

التعريف بالباحث

دكتور محمد عبدالله النقيرة

المؤهلات:

- ١ - ثانوية الأزهر المعدلة سنة ١٩٦٣م من معهد الزقازيق الدينى
 - ٢ - ليسانس فى اللغة العربية والعلوم الإسلامية بتقدير «جيد جداً» سنة ١٩٦٧ من كلية دار العلوم جامعة القاهرة.
 - ٣ - دبلوم التمهيد للماجستير فى التاريخ الإسلامى بتقدير «جيد جداً» سنة ١٩٦٨ من كلية دار العلوم جامعة القاهرة.
 - ٤ - ماجستير فى التاريخ الإسلامى بتقدير «ممتاز» ١٩٧٤ م من كلية دار العلوم جامعة القاهرة.
 - ٥ - دكتوراه فى التاريخ الإسلامى بتقدير «ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى» سنة ١٩٨٠ من كلية دار العلوم جامعة القاهرة
 - ٦ - شهادة إتمام الدراسات التربوية لاعداد المدرس الجامعى من جامعة القاهرة
- العمل: معيد ثم مدرس مساعد ثم مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية بكلية الآداب - جامعة الزقازيق.